بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[إبراهيم : الآية ٣٧]

حديثنا هذه المرة عن الحج وهو العبادة الرابعة الكبرى من عبادات الإسلام وهى عبادة جليلة تنظيمية وجماعية واجتماعية ، ولها فى سير حضارة الإسلام أبعد الأثر .

والـذى جعلنى أختـار الآيـات التى اخترت أن أجعلهـا محوراً لهذا الحديث أننى فرغت من قـراءة واحد من أحدث الكتب التى صدرت فى الإنجليـزية عن محمد صلـوات الله عليه ، وعنـوان هذا الكتـاب بالإنجليـزية « محمـد » وفوقهـا بالعربية صلى الله عليه وسلم .

والمؤلف هو المستشرق الإنجليـزى مارتن لينجز . وهو رجل معـروف لنا فى مصر جيداً ، فقد كان مدرساً للغة الإنجليزية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ،

وفى مصر عرف الإسلام وقرأ القرآن وأحبه ودخل الإسلام عن بصيرة وبينة ، وعاد إلى إنجلترا لينقطع للقراءة عن الإسلام والاستمتاع بالقرآن والتأليف فيهما ، والفصل الأول فى كتابه عن رسول الله ﷺ عنوانه « بيت الله » وهو يروى فيه قضية سيدنا إبراهيم على اعتبار أنه نبى الله الذى اجتباه وأنشأ من صلبه ابنيه إسماعيل وإسحاق .

وعن كل منهما نشأ شعب كبير : ودين سماوى ، (العرب والإسلام من إسماعيل) و (اليهود واليهودية من إسحاق) ، وإبراهيم عليه السلام هو أول المسلمين ، وهو وإسماعيل هما اللذان بنيا البيت الحرام ، ومارتن لينجز فى الفصل الأول من كتابه هذا يحكى قصة إبراهيم مقتبسة من العهد القديم فى سفر التكوين من الكتاب المقدس مع شىء مما قاله المفسرون المسلمون فى شأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وبهذه المناسبة أذكر أن مؤرخنا الكبير أبا جعفر محمد ابن جرير الطبرى أساء التصرف جداً فى كلامه فى هذا الموضوع فى الجزء الأول من تاريخه ، فبعد مناقشة وكلام كثير انتهى إلى أن الذبيح هو إسحاق ، فكان فى هذا مع اليهود على المسلمين . .

والآن أترجم لك كلام مارتن لينجز فى الفصل الأول من كتابه لكى تقف ياسيدى القارىء العربى على ما فى العهد القديم عن سيدنا إبراهيم قال : يقول سفر التكوين : (إن إبراهيم لم يكن له ولد ولم يكن له أمل فى أن يكون له ولد ، وفى ذات ليلة ناداه الله من خيمته ، وقال له : انظر الآن إلى السماء وعد النجوم إذا كنت قادراً على عدها » ، وعندما رفع إبراهيم نظره إلى السماء يتأمل النجوم سمع الصوت يناديه ويقول له : « هكذا ستكون ذريتك » .

« وكانت سارة زوج إبراهيم فى السادسة والسبعين من عمرها ، أما هو فكان فى الخامسة والثمانين ، وقدمت له امرأته سارة خادمتها هاجر المصرية لكى

نكون زوجة ثانية له . وفعل إبراهيم ذلك وحملت هاجر ، ثم وقع الخلاف بين سارة وهاجر ، وهربت هاجر خوفاً من غضب سارة ، وتوجهت إلى الله تسأله العون فى محنتها ، وأرسل الله لها ملاكاً يبلغها عنه سبحانه « سأزيد ذريتك زيادة عظيمة حتى لتستعصى ذريتك على العد لكثرتها ، ثم قال لها الملاك : اسمعى . . إنك الآن حامل وستلدين ولداً وستسمينه إسماعيل لأن الله قد سمع صوت استغاثتك » .

« ثم عادت هاجر إلى إبراهيم وسارة وبقية أسرتها وأبلغتهم بما قال الملك . وعندما ولدت سمى إبراهيم ابنها إسماعيل ومعناه « إن الله يسمع » .

وعندما بلغ إسماعيل الثالثة عشرة من عمره كانت سن إبراهيم قد بلغت المائة ، وكانت سارة قد بلغت التسعين ، ثم كلم الله إبراهيم مرة أخرى ، وقال له سبحانه إن سارة هى الأخرى ستلد له ولداً وأن عليه أن يسميه إسحاق . وخاف إبراهيم من أن يقبض الله محبته عن ابنه إسماعيل (ويقبضه إليه) نتيجة لذلك ، فرفع رأسه إلى السماء ودعا : سألتك جل جلالك أن يبقى ابنى إسماعيل » وقال سبحانه : « سمعت دعاءك فى شأن إسماعيل فاستمع لى : لقد باركته وسأنشىء منه أمة عظيمة وسآخذ ميثاقى مع ابنك إسحاق الذى ستلده لك سارة من العام القادم » .

« وولدت ــ سارة ابنها إسحاق وأرضعته بنفسها وعندما بلغ سن الفطام قالت لإبراهيم إن هاجر وابنها لا ينبغى أن يظلا فى البيت أكثر من ذلك ، واغتم إبراهيم لذلك غماً شديداً لأنه كان يحب ابنه إسماعيل حباً عظيماً ، ولكن الله كلمه ، وقال له إن عليه أن يفعل ما طلبته سارة ولا يحزن وأعاد عليه وعده بأن إسماعيل سيكون مباركاً) .

ثم يقول مارتن لينجز :

« والآن لا ينظر إلى إبراهيم على أنه أبوه الأعلى شعب واحد بل شعبان عظيمان ، شعبان توجتهما العناية الإلهية ، و يريان أنهما أداتان تنفذان إرادة الله لأن الله لا يمنح بركاته لشيء دنيوى ، وإنما هو يمنح بركاته لشيء روحى ، وإبراهيم بهذا أصبح منبعاً يفيض منه تياران روحيان لا ينبغى أن يسيرا معا فى تيار واحد ، إن لكل منهما طريقه ، وأحل الله بركاته على هاجر وإسماعيل ووكل العناية بأمرهما إلى الملائكة ، وضمن لهما كل خيره » .

تياران روحيان . ديانتان . عالمان . . ربهما الله سبحانه ، دائرتان ومركزان بالتالى . إن مكاناً من الأمكنة لا يصبح حرماً مقدساً بإرادة الإنسان بل الله يختاره ويخلع عليه الحرمة ، وكان فى محيط إبراهيم أو مجاله حرمان : واحد منهما كان موجوداً أمام إبراهيم ، أما الثانى فربما لم يكن إبراهيم يعرف عنه شيئاً ، وإلى هذا الحرم الثانى ساق الله هاجر وإسماعيل فى واد غير ذى زرع فى جزيرة العرب على مسيرة أربعين يوماً على الجمال جنوبى أرض كنعان ، وكان هذا الوادى يسمى بكة ، ويقول بعضهم إن هذا الوادى سمى بهذا الاسم بسبب ضيق المساحة التى يقوم فيها محاطاً بالتلال من كل ناحية إلا ثلاثاً : فله مدخل من ناحية الشمال ، ومدخل من الجنوب ، ومدخل من ناحية البحر الأحمر الذى يبعد وادى بكة عنه بخمسين ميلاً ، ولا تذكر لنا الكتب الطريق الذى سلكته هاجر وابنها إسماعيل إلى بكة ، وربما يكونان قد وصلا إلى هناك فى رفقة قافلة لأن موضع بكة يقع على واحد من طرق التجارة الكبرى ، ويسمى أحياناً طريق البخور . . ولابد أن هاجر انفصلت عن القافلة عندما مرت القافلة بالوادى ، ولم يمض وقت طويل حتى اشتد بالأم وابنها العطش حتى خافت هاجر على ابنها من الموت ، وبناء على ما يقوله أبناؤهما استغاث إسماعيل بالله من موضعه على الرمال ، ووقفت هاجر على مرتفع من الأرض ونظرت لعلها ترى قادماً ، فلما لم تجد ، جرت إلى

مرتفع من الأرض ونظـرت ولكنها لم تـر أحدا! وملكهـا اليأس فأخذت تجرى بين التلين سبعـة أشواط ، ثم جلست تستريح على صخـرة بعـد الشوط السـابع ، وهنا سمعت صوت الملك يخاطبها قائلاً كما نقرأ فى سفر التكوين :

(وسمع الله صوت الغلام ، ونادى الملك أم الغلام من السـماء ياهــاجر لا تخافى لأن الله سمع صـوت الغـلام من حيـث يكـون : قـومى واحملى الغـلام وامسكى به بيـديك لأننى سأنشىء منه أمـة كبيرة وفتح الله عينيها فبصرت بعين ماء وقد فجر الله الماء من عين عند قدمى إسماعيل) .

ومن ذلك الحين أصبح الوادى مـوقفاً من مواقف القوافل المارة بـالطريق ، وسميت العين زمزم ـ وإلى هنا أقف بالترجمة عن مارتين لينجز .

***

ونشأت إلى جانب وادى بكة مدينة مكة . وتقول الرواية الإسلامية المعتمدة إن إبراهيـم ذهـب إلى بكة ومكـة عندما اشتـد ساعـد ابنه إسماعيل ، وإبـراهيم وإسماعيل رفعا قواعد البيت . . ونقرأ فى سورة البقرة :

﴿ وإذْ جعلْنَا البيتَ مثابةً للنـَّاس وأمناً . واتَّخذُوا من مَقام إبراهيمَ مُصلى ، وعَهدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طهرا بيتى للطَّائفِينَ والعَاكفينَ والرُكع السُجُود ﴾ [البقرة ٢ / ١٢٥] وفى سورة آل عمران نقرأ :

﴿ إنَّ أولَ بيتٍ وُضع للنَّاس للَّذى ببكةَ مُبَاركاً وهُدى للعْالمَين فِيهِ آياتٌ بينَاتٌ مقامُ إبراهيمَ ومن دخلَه كان آمِناً ولله على الناس حِج البيتِ من استطَاع إليه سبِيلاً ﴾ . [آل عمران ٣/ ٩٦ ـ ٩٧] .

وفى سورة الحج نقرأ :

﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ [الحج ٢٢/ ٢٧ ـ ٣٠] .

ولن أمضى فى ذكر بقية آيات الحج التى نعرفها جميعاً لكثرة ماسمعناها وقرأناها . ولكنى أقف هنا وأسأل : ما حكمة الحج ؟ .

لقد قرأت تفاصيل شعائر الحج كما قررها رسول الله ﷺ فى حجة الوداع أو حجة التمام فى ذى الحجة من العام العاشر للهجرة ، وهى أوضح ماتكون فى الصحاح وكتب التاريخ وخاصة مغازى الواقدى ، وتعجبت من حرص رسول الله على التوفيق فى كل خطوة منذ الوصول إلى مكة وطواف القدوم إلى العودة إلى مكة وطواف الوداع ، وخرجت بأن الحج عبادة تجميع للناس ، وتنظيم لهم ، فكل الحجاج يتحركون من موضع إلى موضع فى نفس الساعة ، وخاصة عند الدفع من عرفات إلى مزدلفة والله سبحانه عندما قال **﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾** [البقرة ٢/ ١٩٧] و **﴿ ثمُ افيضوا من حيث أفاض الناس ﴾** [البقرة ٢/ ١٩٩] ، وعندما نقرأ ذلك نرى أن هذه كلها شعائر دقيقة محسوبة حتى يتعود الناس الدقة والإحكام ، وأى خطأ جسيم فى المناسك يفسد الحج . وليس هناك تفسير لهذه الخطوة أو تلك ، ولكن الله سبحانه ورسوله قالا ذلك حتى يطيع الناس وينتظموا ويحسوا أنهم أمة الله ورسول الله بعد أن وصل مع الناس إلى منى وأخذوا يرمون الجمرات ، ويترددون بين مكة ومنى ، وينحرون البُدن ، أباح للناس تقديم بعض الأشياء على بعض لأن أيام التروية أيام طلقة

فيها راحة واستجمام ، وفيها راحة نفس للمؤمن الذى أدى حجه بكل مناسكه ، وحتى السيدة عائشة عندما طلبت إلى رسول الله أن تطوف بالبيت الحرام مرة أخيرة لأنها لم تستطع طواف القدوم عندما وصلت مكة وخاف أن تعطله عن العودة إلى المدينة أمر أخاها أن يطوف بها ثم يلحقانه ، وهو خارج من مكة وزحام الحج فى أيامنا أضاع الكثير من بهجته ، ولكن الذين حجوا فيما مضى لا يزالون يذكرون طرب النفس أثناء الحج رغم شظفه تلك الأيام ، وأنا حججت أول مرة سنة ١٩٣٨ . ونزلت فى بيت مطوف طيب أسكننا فى حجرات حول رحبة بيته على البلاط . وكان يطعمنا طعاماً متواضعاً جداً . والأرض كانت متربة غير مبلطة ولكن الحج كان متعة لأننا كنا قليلين ، وكان معظمنا غير ميسور الحال ـ ولكن القلوب كانت عامرة بالإيمان والنفوس خالية من الهموم .

وعندما قال الله سبحانه ﴿ **ثم أفيضُوا من حيثُ أفاضَ النَّاسُ** ﴾ كان يخاطب القرشيين الذين أسلموا لأنهم كانوا قبل الإسلام يختصون أنفسهم بالوقوف عند مزدلفة والدفع منها ، بينما كان بقية الناس يقفون فى عرفات ويدفعون منها ، ولكن رسول الله ﷺ كان قبل الإسلام يقف مع الناس فى عرفة ويفيض منها معهم ، فهكذا فعل إبراهيم عليه السلام .

وعندما قال الله فى سورة البقرة :

﴿ **يَسْألونك عن الأهلةِ قُل هِي مواقيتُ للنَّاسِ والحَجِّ وليس البرّ بأن تأتُوا البيُوت من ظهُورها ولكنَّ البرَّ من اتَّقى وأتُوا البيُوت منْ أبوابِها واتقوا الله لعلكُم تفلحُونَ** ﴾ . [البقرة ٢/ ١٩٠] .

كان يصحح مفاهيم بالغة الخطأ عند المكيين قبل الإسلام : فكانوا يتصرفون على هواهم فى مواعيد الحج ، لأن الشىء الأساسى عندهم لم يكن الحج بل التجارة ، والبيع أولاً ، ثم العبادة ، فذكر الله الناس جميعاً هنا بضرورة

التزام مواقيت الحج ، لأن الأهلة نفسها كانت مواثيق للناس والحج ، وكان المكيون قد ابتدعوا بدعة سموها الحمس ، واختصوا أنفسهم بها ، وبهذه البدعة فرضوا على الناس ألا يشتروا إلا من مكة ولا يأكلوا إلا من طعام مشترى من المكيين ، ولا يطوفوا بالبيت إلا فى ملابس جديدة مشتراة من المكيين ، ولهذا كانوا يحرمون على أنفسهم فى الموسم أكل السمن ، وما إليه لكى يبيعوها للناس بالثمن الذى يريدونه ، وكانوا لشدة اهتمامهم بالبيع والشراء واستخلاص كل درهم من الحجاج يغلقون أبواب بيوتهم حتى لا يستضيفوا إلا علية الناس ، وكانوا يدخلون بيوتهم من ظهورها أى من فتحات خلفها ويخزنون الأطعمة والبضائع والأموال ، فى البيوت حذراً من الناس .

ومن روائع القرآن وبينات صدقه دعاء إبراهيم الذى جعلناه محوراً لهذا الكلام الذى يقول الله سبحانه إنه أسكن من ذريته بواد ذى زرع عند بيته المحرم ليقيموا الصلاة ، وسأل الله سبحانه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وأن يرزقهم من الثمرات ، فوادى مكة غير ذى زرع حقاً ، ولكن الله سبحانه بعد أن أقام فيه إبراهيم وإسماعيل بيت الله جعل الله أفئدة الناس تهوى إلى هذا الوادى وأهله ، فكانت جرهم الثانية التى عمرت مكة بعد أيام إبراهيم بزمان قبيلة قوية غنية .

وأبو الوليد الأزرقى فى أخبار مكة يؤكد لنا أن مكة أيام جرهم كانت غنية وافرة بالمياه ، والجرهميون حفروا بعد زمزم نحو عشر آبار ، وهذا الغنى أفسدهم فطغوا فى البلاد ، فذهب الله بهم ، وقبل خروجهم من مكة ألقوا ذخائرهم فى زمزم وطمروها ، وجاء مكانهم بخزاعة ، وخزاعة نصف يمنية ، وكان أهلها أول الأمر على بأس شديد ، وقد عمروا مكة عندما ملكوها ، وقصدها الناس وكثرت فيها الخيرات وهوت إليها قلوب الناس من كل مكان ، ولكن الخزاعيين عندما كثرت أموالهم وعظم رخاؤهم ضيعوا حرمة الحرم ولم يولوه العناية الكافية

فأدال الله منهم بقريش وعلى رأسهم عبقرى من عباقرة التاريخ العربى قبل الإسلام وهو قصى بن كلاب ، وكان زعيماً محارباً سياسياً غلب خزاعة ودخل مكة بالقبائل القرشية الكبرى من خط غالب بن لؤى ، وهم عمود النسب النبوى الشريف ، وهؤلاء هم قريش البطاح ثم استدعى بقية القرشيين المتفرقين فى الحجاز وحلفائهم من بعض بطون خزاعة ، وجعلهم كلهم قرشيين وأنزلهم حول مكة ، وهؤلاء هم قريش الظواهر من خط عامر بن لؤى ، وهم خارج عمود النسب ، وعمرت مكة على أيامه وأزهرت تجارتها ، وكثرت الآبار فيها ، ثم التفت هذا الرجل الذكى إلى خزاعة وصالحها وأرضاها ، وقبل أن يموت قصى كانت مكة قد أصبحت من أعاظم مدن الجزيرة ، ثم جاء ابنه عبد مناف بن قصى ، وكان رجلاً سياسياً فاستأنف القبائل فى الحجاز ، وعقد حلف الأحابيش ، والأحابيش خمس قبائل أساسية : ثلاث من خزاعة واثنتان من كنانة ، ثم جاء هاشم وهو الذى نظم التجارة المكية ، وأحيا طريق التجارة من اليمن إلى الشام ماراً بمكة . وعلى بدء انتظمت رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، ونظم طرق التجارة الكبرى إلى الشام والعراق كالجادة والنجدية والتبوكية ، وبفضله أصبحت مكة من أغنى مدن العالم التجارية .

ثم جاء عبد المطلب بن هاشم ، وهو رجل الدين الذى أولى الكعبة وبيت الله أعظم العناية ، ونظم الوثنية العربية ، وجعل مكة مركزها والكعبة مدارها ، وأنشأ تنظيماً عظيماً للوثنية العربية سمى بدين عبد المطلب ، وأعاد حفر زمزم ، وحفر آباراً أخرى ، وفى أيامه بلغت مكة ذروة قوتها فى الجاهلية وعبد المطلب هو جد نبينا محمد صلوات الله عليه .

وهو الذى رعاه بعد أن مات أبوه ثم أمه عليهما رحمة الله ، واحتضن عبد المطلب حفيده وأحسن رعايته ، ومن عجب أن رسول الله ﷺ عندما نادى بالإسلام وهو دين الله ، وهو بعث للدين القيم وهو ملة إبراهيم عندما نادى

بالإسلام كان عليه أن يهدم دين جده عبد المطلب .

فانظر كيف رعى الله مكة منذ قام فيها بيته ، وجعل أفئدة من الناس تهوى إلى أهلها ورزقهم من الثمرات ، واقرأ هذه العبارة الجميلة التى قالها ابن بطوطة عن مكة فى وصف رحلته ، وكانت مكة قرة عين هذا الرجل العظيم الذى يعتبر أعظم رحالة فى التاريخ البشرى قبل العصور الحديثة ، كانت مكة مركز رحلاته يطوف ويطوف ثم يعود إليها حتى لقد حج ست مرات . واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى المكى ، قال عن مكة : (ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة ، والمثول بمعاهدها الشريفة . وجعل فيها أنساً وحباً فى القلوب ، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ، ولا يفارقها إلا آسفاً لفراقها متولها لبعاده عنها ، شديد الحنان إليها ، ناوياً لتكرار الوفادة عليها ، وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها ، ويشاهد التلف فى طريقها ، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مستبشراً مسروراً كأنه لم يذق لها مرارة ، ولا كابد محنة ولا نصباً ، إنه لأمر إلهى وصنع ربانى ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة) ، ثم يقول بعد ذلك : (إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بواد غير ذى زرع . ولكنه ساق إليها الخيرات من كل صوب . فكل طرفة تجلب إليها ، وثمرات كل شىء تجبى لها ، وقد أكلت بها من الفواكه : العنب والخوخ والتين الطيب والرطب ما لا نظير له فى الدنيا ، وكذلك البطيخ المجلوب إليها مالا يماثله سواه طيباً وحلاوة ، واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم ، وكل مايفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه ، وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن سر لطفاً من الله بسكان حرمه الأمين مجاورى بيته العتيق) .

وهذا كلام قاله ابن بطوطة عن أول زيارة له لمكة سنة ١٣٢٥ م ، ولم يكن هناك بترول ولا كانت هذه البركات التى أكرم الله بها بلاد العرب ، ألا يخيل إليك

أن ابن بطوطة يتحدث بلساننا نحن اليوم عندما نزور مكة والمدينة ونجد خيرات الله مجموعة فيهما ، لقد كانت أزمان ابن بطوطة وأمثاله أزماناً مخوفة ، والرحلات كانت مخاطرات ومغامرات ، وكان اللصوص والبدو والجياع ينقضون أحياناً على القوافل وينهبونها ويقتلون أهلها ، وكانت حكـــومات مكة والحجـــاز ضعيفة لا تستطيع حماية الحجاج ، ولكن قوافـل الحج لم تتوقف أبداً ، والناس حتى فى أوقات الحروب والأخطـار لم يتوقفـوا عن الحج أبداً ، وظل النـاس يقصدونها فى الموسم أو خارجـه أو للدراسة والحج والعمرة قـرنا بعد قـرن من أقصى الأندلس وساحل الأطلسى ومن جزر أندونيسيا . وكان الألوف يغرقون فى البحر ، ولكن أحداً لم يكن يتردد فى الحج ، وكانت رحلة الحج من الأنـدلس والمغرب وأفريقية المدارية والاستـوائية الغربيـة تستغرق مابين سنتين إلى ثـلاث ، وبعض الحجاج كانـوا يقطعون الطريق على أقدامهم وكـانت رحلة البحر من الهند وبـلاد الملايو وأندونيسيـا تستغرق سنتين على الأقل . ولكن قوافل الحج لم تتوقف أبـداً وهذه من أعجب الظـواهر الـدينيـة الحضاريـة فى التـاريخ ، وعندمـا تقف فى الحرم الشريف وتتأمل الطائفين يدورون حـول الكعبة فاذكر أن هذه الحركـة الدائرية لم تتوقف أبـداً منذ انفتح باب مكـة فى العام الثـامن للهجرة إلى يومنـا هذا ، وهى مستمرة ليلاً ونهاراً كأنها حركة أجرام سماوية .

وأنا زرت الحرم فى كل ساعة من ساعات النهار والليل لأتأمل هذا المشهد الفريـد وأتعجب من تحقيق رجاء إبـراهيم ربه ، وفى ذات مرة وأنـا جالس على الدرج الرخامى أتأمل الكعبة والطائفين حولها وجدت نفسى أقول سبحانك ربى لقد جـاء فى التاريخ يوم لم يكـن فيه من المسلمين إلا اثنان : محمـد صلوات الله عليه والسيدة خديجة رضوان الله عليها ! .

ولم يجعل الله تعالى عبادة كـانت أوسع بركة على الحضارة الإسـلامية وجماعة المسلمين مثل الحج . ولولا الحج لما كـانت هناك أمـة إسلاميـة واحدة تنتشر فى

بقاع الأرض ، بل لما علم مسلم عن مسلم فى بلد آخر شيئاً ، فإن رجال السياسة لم يفعلوا فى سبيل توحيد المسلمين وجمع الصفوف إلا القليل فى الماضى ، ولكن الحج حقق المعجزات ، والدول الإسلامية استثنينا السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد التى عمرت درب زبيدة من العراق إلى الحجاز وأنفقت الألوف فى حفر الآبار وتعبيد الطرق إذا استثنيناها فلا أذكر أن واحداً من حكام المسلمين فى الماضى عنى عناية تذكر بشىء يسمى المرافق وأولها الطرق ، ولكن الحج عمر الطرق وجمع المسلمين بعضهم إلى بعض ونقل أخبار بعضهم إلى بعض ، وإذا كان هناك اليوم شىء يسمى عالم الإسلام فإن الفضل فيه يرجع إلى الحج إلى مكة ثم جهود علماء المسلمين ، فالحج هو الذى نظم الطرق بل هو الذى شقها من أقصى عالم المسلمين إلى أقصاه وجاء ببعضهم إلى بعض ، وهو الذى وحد القلوب والألسنة على لغة الإيمان .

وفى أطلس الإسلام وضعت خرائط طرق الحج ، وأنا أتعجب ، فهذه الطرق كلها طرق بشر لا طرق منشآت ، فإن الرومان كانوا يبنون الطرق بناء بالحجارة على عمق مترين وثلاثة ، أما نحن فإن تمهيدنا للطرق كان قليلاً ودليل ذلك أنهم يقولون فى الغرب : بناء الطرق ونحن نقول شقها ، والفرق بين الاثنين عظيم ، ولكن أقدام المسلمين ودوابهم هى التى مهدت الطرق ، وأهل الخير على كل مرحلة من مراحل الطريق هم الذين حفروا الآبار ورعوها حسبة لله تعالى ، والتجار والحجاج وأهل العلم ساروا فى هذه الطرق وعمروها وربطوا عالم الإسلام بعضه ببعض ، وكل هذه من فضائل الحج الدينية والحضارية ، وصدق رب العزة عندما قال ﴿ **وأذِن فى الناسِ بالحجِ يأتوك رجالاً وعلى كلِ ضامرٍ يأتِين من كلِ فجٍ عميقٍ ليشهدوا منافِع لهُم ويَذكروا اسم الله فى أيامٍ معلُوماتٍ على ما رزقهُم من بهيمةِ الأنعامِ ، فكلُوا مِنها وأطعِموا البائِس الفقير ، ثم ليْقضُوا تفثهُم وليُوفوا نُذُورهُم وليطوفوا بِالبيتِ العتيق .**

ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ . [الحج ٢٢/ ٢٧ ـ ٣٠] . والتفث ما يصيب المحرم بالحج من ترك الأدهان والغسل والحلق وإزالة مناسك الحج بعد الإحلال .

وكانت بركات الحج على التجارة والحضارة الإسلامية ذات آثار أبعد مما ذكرنا ، فقد كانت طرق الحج طرق قوافل وتجارة أيضاً ، وهذا معروف ، ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون هو أن قوافل الحج نفسها كانت عظيمة الأثر على التجارة ، لأن معظم الحجاج كانوا فقراء ، وحتى الموسرين منهم لم يكونوا يستحبون حمل المال الكثير معهم لكثرة الأخطار ، وكان الفقراء وضعاف الحال يأخذ الواحد منهم مع المال القليل بعض منتجات بلده الصناعية والزراعية ، فإذا حطت القافلة فى بلد باع الناس ماأرادوا مما معهم من البضائع التى يحتاج الناس إليها فى البلد الجديد ، وأنفق بعضها فى حاجاته واشترى بضائع من منتجات ذلك البلد ، فإذا بلغ بلداً آخر عمل نفس العمل ، ولا يزال يبيع ويشترى وينفق من فروق الأسعار حتى يتم رحلته ويحج ، ويفعل نفس الشىء على طريق العودة : وكان تعداد القافلة لا يقل عن ألفين ليأمنوا على الطريق ، فإذا فرضنا أن كل حاج خرج من بلده بما قيمته خمسون ديناراً فحسب من الأموال والبضائع ، وكانت القافلة من ثلاثة آلاف ، فهذه مائة وخمسون ألف دينار من البضائع والأموال تتحرك على طول الطريق ، وهذه القوافل كانت تحمل كل شىء ، والكميات الصغيرة تصبح كبيرة مع كثرة العدد . فكانت نتيجة هذا أن منتجات العالم الإسلامى كله كانت موجودة فى كل البلاد ، ومكة هى سوق التجارة الأكبر . هنا كان كبار التجار يتلاقون فى الموسم ليسوى كل منهم حسابه مع أمثاله . وبعض تجار العالم الإسلامى كانوا يصدرون صكوكاً أو مانسميه اليوم خطابات ضمان بمبالغ كبيرة أو صغيرة . والمسافر ينفق على حساب خطاب الضمان هذا ويسجل فيه ، حتى إذا وصل مكة عمل حسابه مع

مراسل تاجر بلده فى مكة . وكان هذا نظاماً عجيباً وناجحاً جداً .

وكـانت قوافل الصحـارى أكثـر أمناً على أنفسهـا وأموالها من الطـرق المارة بالمدن والحضر ، لأن رجال الدول كانوا يعتدون على أموال الناس فى تلك الطرق أما القبائل البادية فكانت دائما حـريصة على أن تمر القوافل بأراضيها لأنها تأتيها بما تحتاج إليه من الآنية المعدنية والصناعات التى لا تحسنها القبيلة فى الصحراء ، والقافلة كـانت تحمل منها ماتريـد بيعه من منتجاتها كالجلـود والصوف والجبن والنبـاتات الطبيـة والماشيـة ومـا إلى ذلك ، فكانـت القبائل تحرس القبـائل دون خفارة تـذكر ، ولهذا فقد كـانت طرق الصحارى القـاحلة التى تنتقل من أرض قبيلة إلى أرض قبيلة أخرى أعمر من طرق الحضر وأكثر أمناً .

***